استدراك ابن منظور على بعض من سبقه من العلماء

*د. الحسين النور يوسف

مستخلص البحث:

يهدف هذا البحث إلى التعريف بابن منظور وجمع بعض شوارد المسائل المتعلقة بنقده لبعض من سبقه من العلماء في الفقه والتاريخ وعلوم اللغة وكيف أن طبيعة نقده كانت مختلفة تماماً عن الآخرين من حيث البعد عن الأذى والتجريح.

Abstract:

This research aims at acquainting with Ibn Munzoor , and collecting some of his strange matters concerning his criticism for some of his precedents from scholars in figh , History and linguistic.And how the nature of his critics was totally different from the others in avoiding harm and injuries.

---

* أستاذ مساعد ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم..

المقدمة

تميز علماء المسلمين في أيام إشراق هذه الحضارة بالاتساع في العلوم والأخذ بأسبابها ولم تكن صفة التخصص في فن دون فن كما هو الحال في غالبها الآن من سمتهم ، وبهذا تجد الرجل يتقن اللغة ويجيد النقد ويحدّث وربما يفسر دونما حرج ، ويعقد في اليوم حلقات مختلفات لتلاميذه ينهل كل مما يناسبه من علوم ذلك الرجل، وأقول لقد حافظ بعض العلماء حتى هذا العصر على هذا المنهج الموسوعي وقد جلست بحمد الله إلى نفر من هذا الفريق.

يمثل ابن منظور ذلك النفر الذي لا يعرف التخصص والحصر بل كان بحراً ذخاراً بالمعارف والعلوم وقد سكب هذه المعرفة الواسعة والعلوم الجامعة في كتابه المعروف بـ (لسان العرب) الذي ما أن يذكر حتى يتبادر إلى الأذهان القواميس اللغوية التي تعني بشرح الألفاظ وتقف عند ذلك الحد ، ولكنك إذا طالعت هذا السفر العظيم الحجم والقدر أدركت أنك قد لججت في بحر لا ساحل له وتغوص في تلكم اللجج فإذا اليواقيت والجواهر بين يديك لا تدري أيها تأخذ وعلى أيها تعول.

لقد وافتني سانحة جيدة قرأت فيها هذا السفر وكان ذلك أيام تعرضي لعمل بحث لنيل درجة الدكتوراه وكنت أحاول تتبع الكلمات المعربة في كتاب لسان العرب بصفة خاصة لأجمعها وأحملها ميدان بحث لي وقد لاحظت أن ابن منظور ــ وهو بالطبع كما ذكر ــ ينقل من كتب متعددة شرحاً للألفاظ العربية وبسطاً لمعانيها لا يكتفي بالنقل فقط ولكنه إذا رأى اعوجاجاً أو تقصيرًا في كلام من ينقل عنه قوَّم ذلك الاعوجاج أو أكمل ذلك التقصير بعبارات جزلة مهذبة يعبق أرج الأدب من جنباتها وهكذا عادته إذ فيه نجابة وأدب جم وهذا سمت العلماء الأجلاء ولا ينسى أن يدعو للشخص المنتقد بالعفو والرحمة والمغفرة في نهاية عبارته النقدية، فمثلاً في مادة نقض

نقل رأياً للأزهري ولما لم تعجبه عبارة الأزهري راح ينقض عليه قوله وينتقده ولكنه ختم ذلك بقوله [رحم الله الأزهري](1) سيأتي تفصيل هذا الأمر في ثنايا هذا البحث.

لقد لاحظت من خلال هذه الأشياء وأمثالها أن ابن منظور فيه جانب يجب أن يجلي ويوثق عنده وهو نقده لمن سبقه من بعض العلماء فجمعت شوارد هذه المسائل من كتابه وصنفت منها هذا البحث معرفاً بابن منظور حسب ما تيسر لي من سيرته مستعيناً على ذلك بحول الله وقوته القوية فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله.

من هو ابن منظور ؟

عرف ابن العماد الحنبلي باسمه فقال يتحدث عن سنة إحدى عشرة وسبعمائة [وفيها القاضي المنشئ جمال الدين محمد بن مكرم بن على الأنصاري] (2) .

ذكر ابن العماد لقبه واسمه واسم أبيه ثم توقف عند ذلك أما صاحب فوات الوفيات قال [ابن المكرم محمد بن مكرم بتشديد الراء ابن علي بن أحمد الأنصاري الرويفعي ثم المصرى القاضى جمال الدين بن المكرم من ولد رويفع بن ثابت الأنصاري] (3) يلاحظ توسع ابن شاكر في اسم ابن منظور وقال أنه أنصاري رويفعي ونسبه إلى رويفع بن ثابت الأنصاري، وهو صحابي جليل كان قد أمَّره معاوية على طرابلس المغرب فغزا منها بلاد أفريقيه فسار عليه هذا اللقب وهو الأفريقي لغزوه أفريقيا ودخوله فيها في زمن مبكر، وطرابلس هي المدينة المعروفة الآن ولكن لعلهم قصدوا بغزوه أفريقيا توغله غربا ودخوله في تلك المناطق من أفريقيه، ولم تذكر المصادر المنطقه التي غزاها في أفريقيا ولكن لدخول أفريقيا في ذلك الزمن المبكر معنى عظيم فابن منظور كما هو مبين أنصاري عربي ولكن سرت لفظة أفريقي إليه من تسمية جده رويفع بذلك ولعلهم ميزوه بلفظه أفريقي لسبب آخر وهو أن هناك صحابي آخر يسمى رويفع وهو مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ذكره ابن عبد البر في كتاب الاستيعاب كما ذكر رويفع الأنصاري من هذا قال ابن منظور نقلاً عن ابن عبد البر [رويفع بن ثابت بن سكن بن علي بن حارثه الأنصاري بن مالك بن النجار سكن مصر واختط بها داراً وكان معاوية قد أمَّره على طرابلس سنة ست

وأربعين فغزا من طرابلس أفريقيه سنه سبع وأربعين ودخلها وانصرف من عامه فيقال مات بالشام ويقال مات ببرقة وقبره بها] (4).

لقد طالعت كتاب الاستيعاب ووجدت ذكر رويفع الأنصاري ورويفع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك في ترجمه هذين الرجلين قال ابن عبد البر [باب رويفع بن سكن بن عدى..... رويفع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أعلم له رواية] (5).

ولقد اختلفت رواية السيوطي قليلاً عمن سبقه وذلك في اسم ابن منظور حيث قال [محمد بن مكرم بن علي وقيل رضوان بن أحمد بن حقة بن منظور الأنصاري الأفريقي المصري] (6) .

يلاحظ على قول السيوطي أنه ذكر رواية لاسم جد ابن منظور وهو أنه يسمى رضوان ولم يذكرها غيره ممن اطلعت على تراجمهم لابن منظور.

علمه ودراسته :

قال السيوطي [ولد ابن منظور في محرم سنة ثلاثين وستمائة وسمع من ابن المغيّر وغيره] (7). ذكر السيوطي شيخاً واحداً في هذه الرواية لابن منظور لكن اليافعي توسع في ذكر من أخذ عنهم ابن منظور قال اليافعي [توفي القاضي المنشئ جمال الدين بن مكرم الأنصاري الرويفعي وكان يروى عن مرتضى وابن المغيّر ويوسف المجبلي وابن الطفيل] (8).

جهوده العلمية :

أهم ما يذكر هنا مؤلفه المشهور كتاب لسان العرب قال السيوطي [جمال الدين أبو الفضل صاحب لسان العرب في اللغة الذي جمع فيه بين التهذيب والحكم والصحاح وحواشيه والجمهرة والنهاية] (9) وفي قول السيوطي هذا كفاية توضيحاً لحقيقة هذا السفر المهم ، أما الشق الثاني من جهود ابن منظور العلمية فهو ولعه باختصار الكتب القديمة الكبيرة كتاريخ ابن عسكر وكتاب الأغاني وغيرها : قال ابن حجر في ذلك.

[وكان ابن منظور مغرى باختصار الكتب المطولة اختصر الأغاني، والعقد الفريد، والذخيرة، ونشوان المحاضرة، ومفردات ابن البيطار، والتواريخ الكبار، وكان لا يمل من ذلك : قال الصفدي [لا أعرف في الأدب وغيره كتاباً مطولاً إلا وقد اختصره] [10].

ولعله أشار بالتواريخ الكبار لتاريخ دمشق لابن عساكر وهو كتاب كبير الحجم جداً ولكن ابن منظور قد اختصره في كتاب سماه مختصر تاريخ ابن عساكر ومما يلفت الانتباه أن ابن منظور كما ذكر ابن حجر كان مغرى بالاختصار للكتب الكبار ولكن لماذا صنع كتاباً كبيراً كلسان العرب إن كان فيه ميل للاختصار ؟ غالب ظني أنه أراد بصنعه كتاب لسان العرب أن يغنى به المكتبة والقارئ عما سواه ، وقد جمعه من عده كتب وهذا نفسه اختصار لأنك لو رحت تجمع الكتب التي أخذ منها ابن منظور لسان العرب لوجدت ذلك قدراً عظيماً يثقل جمعه وتحصيله في مكان واحد، ولهذا فقد اختصرها جميعاً في كتاب واحد جامع وسماه اسماً جامعاً وقد صار بحق كتاباً مغنياً عن سائر كتب اللغة . أما ضخامته فترجع لكثرة المادة التي استخدمها ابن منظور.

عمله :

عمل ابن منظور في ديوان الإنشاء وولى القضاء بطرابلس قال السيوطي [وخدم في ديوان الإنشاء مدة عمره وولى قضاء طرابلس وكان صدراً رئيساً فاضلاً] [11] فابن منظور كان يعمل في ديوان الإنشاء وعمل أيضا بالقضاء وعجيب أن يولي القضاء بطرابلس التي عمل فيها جده رويفع أميراً من قبل معاوية بن أبي سفيان سنة ست وأربعين قال ابن عبد البر رويفع [وأمّره معاوية على طرابلس سنة ست وأربعين] [12] ولعل ذلك قد حدث من قبيل الموافقة.

شعره :

أثبتت له بعض المصادر أشعاراً هي مقطوعات ولم تكن قصائد كاملة قال محمد بن شاكر [له نظم ونثر ومن شعره.

ضع كتابي إذا أتاك إلى الأرض   وقلِّبه في يديك إماما
فعلى ختمه وفي جانبيه   قبل قد وضعتهن تؤاما
كان قصدي به مباشرة الأرض   وكفيك بالتثامي إذا ما

وله في الغزل والنسيب :

ما أنس لا أنس قولها بمنى   ويحك إن الوشاة قد علموا
ونم واش بنا فقلت لها   هل لك يا هند في الذي
قالت لماذا ترى فقلت لها   زعموا
كيلا تضيع الظنون والتهم

اعتقاده ووفاته :

أبانت المصادر أن ابن منظور كان فيه ميل نحو التشيع ولكنه لم يكن شيعياً عميق الاعتقاد في ذلك ويدل على هذا ما وصفه به من ترجموا له . قال ابن العماد الحنبلي عن تشيعه ووفاته : [وفيه شائبة تشيع وتوفي بمصر عن اثنين وثمانين سنة] 14 وكان ابن العماد قد ذكره وهو يتحدث عن سنة إحدى عشرة وسبعمائة وقال محمد بن شاكر الكتبي [وعنده تشيع بلا رفض مات في شعبان سنة إحدى عشرة وسبعمائة(15).

وقال السيوطي [وعنده تشيع بلا رفض مات سنة إحدى عشرة وسبعمائه] (16).

يلاحظ اتفاق المصادر على ذكر خفه تشيع ابن منظور ويؤكد ذلك قولته عن الشيخين في مادة ع م ر منتقداً الأزهري عند ما قال [والعمران أبوبكر الصديق

وعمر بن الخطاب وإنما قيل العمران لأنه أخف] (17). فذكر كلاماً غير لائق فرد ابن منظور قائلاً :- [هذا القول من الأزهري افتئات على هذا الموضع المتشرف بهذين الاسمين العظيمين] (18).

فهذا قول يدل على احترامه لهذين الرجلين كما يدل على عدم رفضه وتعنته ويدل أيضاً على أدبه وهو أمر غير معهود في بعض من تشيعوا حقاً أن يدافعوا عن الشيخين كدفاع ابن منظور هذا كما يلاحظ اتفاق المصادر على وفاته وتاريخها عليه رحمة الله.

الدراسة :

لقد ذكرت فيما مضى أن ابن منظور سار على نظام الموسوعات في كتابه هذا يصحبه في ذلك علم غزير ونظر ثاقب ومن دقة نظره مع موفور علمه أنه كان إذا نقل قولاً لعالم من العلماء نظر فيه وقاسه بما عنده من المعرفة وربما استدرك على صاحب ذلك القول ونقد مذهبه، وقد أردت في هذه المقالة الكشف عن هذا الجانب إذ إن صاحبه لم يكن حاطب ليل وإنما كان محققاً مدققاً وقد حصرت مواضع كثيرة استدرك فيها على من سبقه وهذا بالطبع موضوع الكتاب، وبعضها يكشف عن معرفة ابن منظور بالفقه والحديث والتاريخ والنصوص وربما الحساب والأوزان وعلى كل فهي صور من النقد ولكنها ليست هي فن النقد ذلكم العلم ذو القواعد والنظم المعروفة ولكن هي تكشف عن جانب من شخصية ابن منظور اللغوي فيكون ابن منظور صاحب الدراية والموسوعية في العلم . وقد تخيرت مواضع من كتابه يبين كل منها المجال العلمي الذي خبره ابن منظور حسبما ذكرته فيما مضى من قول.

من مواقف ابن منظور الفقهية حديثه عن الإيلاء والفئ وذلك في رجوع الرجال لنكاح أزواجهم قال ابن منظور:

[إن المولى حلف ألاّ يطأ امرأته فجعل الله لهذه أربعة أشهر بعد إيلائه فإن جامعها في الأربعة أشهر فقد فاء أي رجع عما حلف عليه من أن لا يجامعها إلى جماعها وعليه لحنثه كفارة يمين، وأن لم يجامعها حتى تتقضى الأربعة أشهر من يوم آلى فإن ابن

عباس وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم وقفوا عليه تطليقها وجعلوا عن الطلاق انقضاء الأشهر، وخالفهم جماعة كثيرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا إذا انقضت الأربعة أشهر ولم يجامعها وقف المولى فإما أن يفئ أي يجامعها وإما أن يطلق فهذا هو الفئ من الإيلاء وهو الرجوع إلى ما حلف أن لا يفعله] (19) .

هذان رأيان في أمر الإيلاء الأول يجعل انقضاء المدة ضربة لازب هو طلاق المرأة التي آلى منها زوجها وذلك إذا لم يجامعها أثناء المدة المحددة ، أما الرأي الثاني فيجعل الأمر بالخيار وذلك إذا انقضت مدة الإيلاء وذلك بأن يجامع ويكفر عن حنثه لأنه أقسم وأما أن يطلق وقد نظر ابن منظور في هذا الخلاف الفقهي فرجح الرأي الثاني واحتج له بالقرآن ذاكراً أن هذا الرأي يسنده القرآن فقال :

[وهذا الرأي [أي الثاني] هو نص التنزيل.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَآؤُوا فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (226)وَإِنْ عَزَمُواْ الطَّلاَقَ فَإِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (227)وَإِنْ عَزَمُواْ الطَّلاَقَ فَإِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (227)﴾ سورة البقرة ،فهذا الانتصار لهذا الرأي يدل على تمكن الرجل من علم الفقه وحضوره الشاهد ولم يشأ أن يترك المسألة دون نظر وتحليل.(20).

لقد جاء في تفسير الفخر الرازي لهذه الآية تفصيل لآراء الفقهاء قال الرازي [وعند أبي حنيفة إذا مضت أربعة أشهر يقع الطلاق بنفسه] (21) هذا الرأي يذهب مذهب ابن عباس وهو الرأي الأول ، أما الرازي فقد ذهب مذهب الجماعة الكثيرة فقال : [إن قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَزَمُواْ الطَّلاَقَ (227) ﴾سورة البقرة، فإن فاءوا وإن عزموا الطلاق ظاهرة التخيير بين الأمرين وذلك يقتضي أن يكون وقت ثبوتها واحداً(22).

ووقت ثبوتها هو انقضاء الأشهر الأربعة ولكل فهمه الذي أوتيه من القرآن وابن عباس هو ترجمان القرآن فرأيه رأي صحيح واضح لا يخرج عن مقتضى عموم معنى الآية وفي قول الآخرين تفصيل وهذا من ابن منظور استدراك جيد وفهم جليل.

لابن منظور معرفة بالتاريخ والجغرافيا تظهر في استطراده وحديثه عن قرية جربة قال ابن منظور [فأما جربه بالهاء فقرية بالمغرب لها ذكر في حديث رويفع بن ثابت

رضي الله عنه] (23). لما عرض ابن منظور لهذا الأمر حكّم فيه ذوقه النقدي وتوسع في موضوع هذه اللفظة فأكد ما ذهب إليه فقال[رويفع بن ثابت هذا هو جدنا الأعلى من الأنصار كما رأيته بخط جدي نجيب الدين والد المكرم أبي الحسن على بن أحمد بن أبي القاسم بن حبقة بن محمد بن منظور] (24).

يؤكد ابن منظور أن رويفعاً الذي ارتبط ذكره بجربة هو جده الأعلى من الأنصار وقد جاء في ترجمة ياقوت تأكيداً لما ذكر عن جربة فإذا هو يقول : [جربة بالضم ثم بالسكون والباء الموحدة خفيفة رواية في جربة المقدم ذكرها : قرية بالمغرب لها ذكر كثير في كتاب الفتوح وفي حديث حنش : غزونا مع رويفع بن ثابت قرية بالمغرب يقال لها جربة ..... وقد روى فيها جربة أيضاً بكسر الجيم وقيل هي جزيرة بالمغرب من ناحية أفريقية قرب قابس يسكنها البربر] (25) فهذا النص يؤكد ما ذهب إليه ابن منظور من تعريف ومعرفة بجربة وموقعها يضاف هذا كما ذهبت إليه من رأي إلى رصيد ابن منظور في المعرفة ونقد ما ينقله حتى يبين أصله ولا يلقي الكلام على عواهنه.

في بعض المواقف النقدية لابن منظور نجده ينتصر لبعض الأدباء والعلماء منتقداً من اعترض على آرائهم مصححاً وموضحاً ما عسى أن يكون عليه الكلام كل ذلك في أدب جم وخلق رفيع، فكان انتصاره لبعض من دافع عنهم ترجيحاً لهم على غيرهم وتعريف مكانتهم ومن ذلك انصافه للشيخ ابن برّى من ابن خلكان وقد نقل ابن منظور الأمر من كتاب صحاح الجوهري فقال : [قال الجوهري: وقول الشاعر بالمرهفات البوارد يعني السيوف وهي القواتل] (26) لقد تحققت من هذه القولة ورجعت لكتاب الصحاح للجوهري فإذا فيه[وبرد مات وقول الشاعر بالمرهفات البوارد يعني السيوف القواتل] (27) بعد ذلك يذكر ابن منظور أن الشيخ ابن بري قد أتم البيت الذي ذكر صاحب الصحاح عجزه فقال ابن منظور [قال ابن برى وتمام البيت وهو :

وأن أمير المؤمنين أغصني مغصهما بالمرهفات البوارد] (28).

بعد ذلك ذكر ابن منظور أن القاضي ابن خلكان انتقد الشيخ ابن برى وقد وجد ابن منظور هذا النقد بخط القاضي ابن خلكان على كتاب ابن بري ونص قول ابن

خلكان كما نقله ابن منظور هو : [يقول ابن خلكان والبيت من جملة أبيات للعتابي كلثوم يخاطب بها زوجته وصوابه :

وأن أمير المؤمنين أغصنى مغصهما بالمشرفات البوارد] (29). فابن خلكان جعل عجز البيت هو المشرفات البوارد بدلاً عن المرهفات البوارد ثم راح ينقد الشيخ ابن بري حسبما نقله ابن منظور فقال [وإنما وقع الشيخ ابن بري في هذا التحريف لاتباعه الجوهري لأنه كذا ذكره في الصحاح فقلده في ذلك ولم يعرف بقية الأبيات ولا لمن هي فلهذا وقع هذا السهو] (30).

يلاحظ اعتراض القاضي ابن خلكان على الشيخ ابن بري وأنه جعل هذا الخطأ في عجز البيت سببه متابعة ابن بري للجوهري ومما يدل على عدم معرفة ابن برى بالأبيات وأصلها ، فلما وقع ابن منظور على نقد ابن خلكان لابن بري انتصف لابن برِّي من ابن خلكان ولكن بطريقة مهذبة ليس فيها جرح للقاضي ابن خلكان لأنه ذو مكانة معروفة قال ابن منظور : [القاضي شمس الدين بن خلكان رحمه الله من الأدب حيث هو وقد انتقد على الشيخ أبي محمد بن بري هذا النقد وخطأه في اتباعه الجوهري ونسبه إلى الجهل بالأبيات والأبيات معروفة مشهورة والمعروف منها ما ذكره الجوهري وأبو محمد بن برِّي وغيرهما من العلماء] (31).

لقد كان انتقاد ابن منظور هادئاً دون تجريح على الرغم من أن انتقاد ابن خلكان، لابن بري لم يخل من حدة إذ نسب الرجل للجهل ولقد انتصر ابن منظور لابن بري فصحح مذهبه وصحح ما ذهب إليه الجوهري وأن كلاً منهما له من العلم والمعرفة مالا يخفي وأن الصواب ما ذكراه لا ما ذكره ابن خلكان وتأكيداً لما ذهب إليه ابن منظور فقد ذكر القصة برمتها من أن العتابي بن كلثوم خاطب بتلك الأبيات زوجه عندما طلبت منه أن يداني هرون الرشيد ويأخذ أمواله كما أخذها منصور النمري فحلي زوجاته وبني بيته من تلك الأموال فردها العتابي متجافياً عن الوقوف على باب الرشيد وأنشد أبياتا ذكرها ابن منظور وفي ضمنها البيت الذي وقع فيه الخلاف وكانت رواية ابن منظور له موافقة الجوهري والشيخ ابن بري فقال نقلاً للأبيات :

[تلوم على ترك الغنى باهلية   زوي الفقر عنها كل طرف وتالد
رات حولها النسوان يرفلن في الثرى   مقلدة أعناقها بالقلائد
أسرك أني نلت ما نال جعفر   من العيش أو ما نال يحي بن خالد
وأن أمير المؤمنين أغصني   مغصهما بالمرهفات البوارد
دعيني تجئني ميتتي مطمئنة   ولم أتجشم هول تلك الموارد
فإن رفيعات الأمور مشوبة   بمستودعات في بطون الأساود](32)

ومما يضاف لانتصار ابن منظور لمن سبقه من الأدباء تصحيحه لما ذهب إليه ابو حيه النميري والتماسه العذر له قال ابن منظور :- [وقالوا لأبي حية النميري أنشدنا قصيدة على القاف فقال :-
كفى بالناى من أسماء كاف فلم يعرف القاف] (33) .

لقد أخطأ أبو حيه في إنشاده هذا الشاهد لأنه طلب منه قصيده يكون رويها حرف قاف فذهب إلى وزن اللفظ وهو [قاف] فجعل قافيه البيت [كاف] وهكذا فهم المسألة فعده مخطئا ولذلك اعتذر له ابن منظور في رقة ولطف فقال :- [أبو حية على جهله بالقاف في هذا كما ذكر أفصح منه بمعرفتها وذلك لأنه راعي لفظة [قاف] فحملها على الظاهر وأتاه بما هو على وزن قاف من كاف ، وهذا نهاية العلم بالألفاظ وأن دق عليه ما قصد منه من قافيه القاف ولو أنشده شعراً على غير هذا الروى مثل قوله :-

آذنتنا ببينها أسماء .

أو

لخولة أطلال ببرقة ثهمد .

لكان يعد جاهلا وإنما أنشده على وزن قاف وهذه معذرة لطيفة لأبى حية والله أعلم.](34).

يلاحظ دقة نظر ابن منظور وملاحظاته ثم توجيهه للكلام فإنه تصور من ينتقد أبا حية فأعد هذا العذر ودافع عنه بهذه العبارات حتى لا يرميه بالجهل، وهناك لطيفة أخرى تؤخذ من هذا الدفاع وهي أن أبا حية شاعر فحل فلو شك أحد في جهله بالقوافي ربما أعرض عن شعره وهو حجة لأنه يقع في دائرة عصر الاستشهاد لقد وضع ابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد أبا حية النميرى ضمن الشعراء المجانين فقال :- [وكان أبوحية أجن الناس وأشعر الناس وهو القائل.

فلا بعثن مع الرياح قصيدة منى مقلقلة إلى القعقاع

ترد المناهل لا تزال غريبة في القوم بين تمتع وسماع][35]

يفيد القارئ من هذا النص أن هناك علتين في تخليط أبي حية لموضوع [القاف] فانشد بدلا عن القاف كافاً وهما :

1- أن أبا حية كان من المجانين وهم ممن يسمون بالموسوسين ، ولذا ربما كان هذا سبباً في تخليطه في أمر القوافي ومن ثم إنشاده تلك الشطرة .

2- انتصار ابن منظور له بإبعاد شبهة الجهل عنه مسألة صحيحة لأن صاحب العقد الفريد وسم أبا حية مع جنونه بأنه كان " أشعر الناس " ولم يقل من أشعر الناس ليؤكد حسن شاعريته وجودة نظمه أما نصف البيت الذي أنشده أبوحية فهو لبشر بن أبي خازم وقد ذكره البغدادي في الخزانة فقال : [وهذا البيت مطلع قصيدة بشر بن أبي خازم مدح بها أوس بن حارثة وعجزه: وليس لنا بها إن طال شاف][36] .

لقد امتد نقد ابن منظور لمن اعترض على بعض الشعراء السابقين فشمل شاعراً خارج عصر الاستشهاد وتلكم هو أبو نواس يحدوه في ذلك طلب الحق وسعة المعرفة والاطلاع دون النظر لما يعرف عند النحاة من يعتد بشعره أو غيره .

اعترض ابن منظور على الشيخ أبي محمد بن بري الذي كان انتصر له فيما سبق لما رأى من اعتراض ابن بري على أبي نواس في بعض الأبيات قال ابن منظور : [فقال الحسن بن هاني في طردياته :-

قد اغتدى والليل في دجاه كطرة البرد على مثناه

بيؤيؤ يعجب من رآه ما في اليآئي يؤيؤ شرواه

قال ابن بري كان قياسه عنده اليآيئ إلا أن الشاعر قدم فيها الهمزة على الياء ، قال ويمكن أن يكون هذا البيت لبعض العرب فادعاه أبونواس] (37).

اعترض ابن بري على كلمة اليآئي وقال إن الشاعر قد قدم فيها الهمزة على الياء وعليه فالصحيح في القياس عنده أن تكون اليآيئ وهذا أمر مستقيم من جهة اللغة لأنها يمكن أن تقاس على لؤلؤ ولآلئ فالهمزة تأتي بعد الياء ولذلك فإن اعتراض ابن بري جائز ويمكن أن يرد عليه.

من طرف قريب وذلك بقول سيبويه : [ويجوز في الشعر ما لا يجوز في غيره] (38). فإن قيل إن هذه المندوحة للأقدمين وأن أبا نواس من أهل العصر العباسي، والشعر كثيراً ما يلزم الشاعر أموراً عسيرة فيوجد له العذر أن كان هناك بابا يمكن أن يأتي العذر من خلاله .

لقد اعترض ابن برّى على أبي نواس ورماه بالادعاء في نسبة هذا البيت لنفسه وهو لبعض العرب وهذا الذي وقف عنده ابن منظور انتصاراً لأبي نواس . فقال ابن منظور : [ما أعلم مستند الشيخ أبي محمد في قوله عن الحسن بن هانئ في هذا

البيت و يمكن أن يكون هذا البيت لبعض العرب فادعاه أبو نواس وهو وإن لم يستشهد بشعره لا يخفى على الشيخ أبي محمد ولا غيره مكانته من العلم والنظم ولو لم يكن من البديع الغريب الحسن العجيب إلا أرجوزته التي هي " وبلدة فيها زور" لكان في ذلك أول دليل على نبله وفضله وقد شرحها ابن جني رحمه الله وقال في شرحها من تقريظ أبي نواس وتفضيله ووصفه بمعرفة لغات العرب وأيامها ومآثرها ومثالبها ووقائعها وقال في هذا الشرح لولا ما غلب عليه من الهزل لا ستشهد بكلامه في التفسير اللهم إلا إن كان الشيخ أبو محمد قال ذلك ليبعث على زيادة الأنس بالاستشهاد به إذا وقع شك فيه وأن بعض شعر أبي نواس كان في نفسه وأنفس الناس أرفع من هذا وأصلف] (39) .

يبين هذا النص رأي ابن منظور فيما ذهب إليه ابن بري وظهر في ثنايا قوله مكانة أبي نواس وفضله في العلم بلغات العرب ومعرفة الغريب منها واستشهد بأرجوزته التي شرحها إمام اللغة وعمدة العلماء ابن جني وأثني عليها وعلى صاحبها بل ذكر ابن منظور أن ابن جني كان يرى أن شعر أبي نواس حري بأن يستشهد به في أشرف الكتب وهي كتب التفاسير لولا ما عرف عنه من الميل للهزل ، ويصل ابن منظور حديثه في أدب جم ليقول إن انتقاد ابن بري ربما كان القصد منه توجيه الأنظار لهذا البيت حتى يستشهد بقوله إنه لبعض العرب وإن من بعضهم أبا نواس لأنه قد يعجبهم الشاهد فتفادياً للحرج لأنه بعض من خرجوا عن دائرة الاستشهاد فلا يذكرون اسمه ويقولون[وبعض العرب] ولقد تتبعت الأبيات في ديوان أبي نواس فإذا هي في أرجوزته بعنوان اليؤيؤ المعجب ونص الأبيات هو :

قد اغتدي والصبح في دجاه   كطرة البرد علامتاه

بيؤيؤ يعجب من رآه   ما في اليآئي يؤيؤ شرواه

فالاختلاف بين ما في الديوان وما نقله ابن منظور أن كلمة الصبح التي ذكرت في الأصل استبدلت في رواية ابن منظور بلفظه الليل، ولعل كلمة الصبح أوقع في هذا

المكان من لفظة الليل لأنه الليل هو الدجى نفسه فلا معنى لقوله [الليل في دجاه] إلا أن يقصد بالدجى هنا الظلمة لكن قوله الصبح في دجاه أي لم يتضح إذ ما زال الظلام مطبقاً على الكون فهو يغدو في ذلك الوقت ولا يغدو ليلاً لأن الغدو هو السير في أول النهار كذلك استبدلت لفظة علامتاه في رواية الديوان بلفظة مثناه ولعل علامتاه تشير للخيطين الأبيض والأسود [حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر](40).

أما فيما عدا ذلك فالبيتان لأبي نواس في قصيدة طويلة في ديوانه . لقد أخذ ابن منظور من كل فن بطرف وجمع من أشتات المعارف ما جمع ومن ذلك حديثه عن الشمس في مادة [وقب] وكان قد اعترض على مسألة كونية علميه جاءت في كلام الجوهري . قال ابن منظور :[ووقبت الشمس وقوبا غابت وفي الصحاح ودخلت موضعها](41) .

وقف ابن منظور عند قوله الجوهري . دخلت موضعها وهل للشمس موضع تدخله ؟ فقال مستدركا على الجوهري [في قول الجوهري دخلت موضعها تجوُّز في اللفظ فإنها لا موضع لها تدخله وفي الحديث[لما رأى الشمس قد وقبت أي غابت ، قال هذا حين حلها أي الوقت الذي يحل فيه أداؤها يعني صلاة المغرب] (42).

رأى ابن منظور أن قول الجوهري هذا فيه تجوز في اللفظ أي تزيد ومبالغة إذ الشمس ليس لها موضع تدخله وهذا ما أثبته العلم الحديث إذا إن الشمس ثابتة والأرض تدور حولها فما قابلها من صفحة الأرض أضاء بالشمس وما مالت عنه الأرض أظلم أما الشمس فأن غابت عن بلاد ظهرت في أخرى وذلك ما بين مشارق الأرض ومغاربها وليس ثمت موضع تدخله وتأكيداً لما ذهب إليه ابن منظور فقد نظرت في صحاح الجوهري فإذا النص الذي نقله ابن منظور هو (43) . يقول الجوهري [ووقب الشيء يقب وقب أي دخل تقول وقبت الشمس إذا غابت ودخلت موضعها] (44).

لقد نظرت في تفسير الطبري لمعنى الآية [حتى توارت بالحجاب] (45) وذلك التماساً لمعنى غياب الشمس ومعرفة آراء الأوائل في اختفائها وتفسيرهم لذلك . قال

الطبري [توارت الشمس من وراء ياقوتة خضراء فخضرة السماء منها] (46) يلاحظ أن الطبري لم يقل دخلت موضعها كما قال الجوهري وإنما عبر عن معنى الآية بالاختفاء فقط أي خلف حجاب حاجز وقد قال الشاعر :

حتى إذا ألقت يدا في كافر وأجن عورات الثغور ظلامها

فالشمس عند الشاعر تسلم نفسها لليل فيغطيها ولم يقل دخلت موضعا مما يؤيد قول ابن منظور في نقده للجوهري في هذه المسألة العلمية الكونية .

إن كتاب لسان العرب كتاب لغة ولهذا فقد كثرت مواضع نقد ابن منظور لبعض السابقين في مسائل لغوية وهذا شي طبيعي لأنه جزء من صلب الكتاب واختصاص ابن منظور وأول هذه المواضع وقفة عند مادة (أجج). فالحديث هنا عن قلب الياء المشددة عند بعض العرب كقبيلة قضاعة وتعرف هذه اللغة بالعجعجة فإذا أرادوا أن يقولوا تميمي قالوا تميمج لأنهم يبدلون الياء المشددة في آخر الكلمة جيماً وذلك عند الوقف ، وقد ذكر ابن منظور أن أبا عمرو أنشد على هذه اللغة أشعاراً كثيرة منها:-

[حتى إذا ما أمسجت وأمسجا يريد أمست وأمسى] (47).

استدرك ابن منظور على صاحب الشاهد فقال [أمست وأمسى ليس فيهما ياء ظاهرة ينطق بها وقوله أمسجت وأمسجا يقتضي أن يكون الكلام أمسيت ،أمسيا وليس النطق كذلك](48).

لعل استدراك ابن منظور أو نقده في محله لأن أمست وأمسى ليس فيهما أبدال حسبما تقدم من الكلام لأنه ليس فيهما ياء متطرفة مشددة إلا أن يكون كما قال أمسيت وأمسيا فيحدث الإبدال ولو كان ذلك ليصح لأن الياء هنا ليست مشددة ولكن أمست وأمسى هذه بعيدة كل البعد عن لغة القلب . ولغة القلب يثبتها سيبويه بقوله : [وأما أناس من بني سعد فإنهم يبدلون الجيم مكان الياء في الوقف لأنها خفية فأبدلوا من موضعها أبين الحروف وذلك قولهم تميمج يريدون تميمي وهذا علج يريدون علي وسمعت بعضهم يقول عربانج يريد عرباني وحدثني من سمعهم يقولون :

خالي عويف وأبو علج المطعمان اللحم بالعشج
وبالغداة خلف البرنج يريدون العشي والبرني:

هذا النص يثبت صحة اللغة وإبدال الياء جيما وقد نسب سيبويه هذه اللغة لجماعة من قبيلة بني سعد وهذا لا غبار عليه لأن قبائل العرب كثيرة وقد تكون لغة من اللغات تتكلمها أكثر من قبيلة سوى قضاعة كما ذكر بعضهم أو أناس من بني سعد . كذلك ذكر هذا النص علة الإبدال وهي خفاء الياء وظهور الجيم خاصة عند الوقف الذي يتوقع عنده خفاء الأصوات فإذا كان الحرف أصلا من الحروف الخفيفة فعند الوقف يذهب تماما . وعلى كل فهذا يؤكد مذهب ابن منظور وصحة نقده للشاهد وهو وإن كان ينقل عن غيره في كتابه ولكنه لم يكن حاطب ليل بل فيه نجابة ودقة وقد حرص أن يكون كتابه نقيا من الشوائب ما استطاع إلى ذلك سبيلا . أما البرني فهو نوع من التمر الجيد .(49).

الهوامش والمراجع

1. ابن منظور – لسان العرب ج 7 ص244 .
2. ابن العماد الحنبلي – شذرات الذهب في أخبار نم ذهب ج6 ص27
3. محمد شاكر الكتبي – فوات الوفيات ج4 ص 39 .
4. ابن منظور – لسان العرب ج1 ص264 .
5. ابن عبد البر – الاستيعاب في معرفة الأصحاب ج1 ص362 .
6. السيوطي – بغية الوعاة ج1 ص248.
7. المصدر نفسه ج1 ص248 .
8. اليافعي – مرآة الجنان ج1 ص1205 .
9. السيوطي – بغية الوعاة ج1 ص249.
10. ابن حجر – الدرر الكامنة ج4 ص263.
11. السيوطي – بغية الوعاة ج1 ص248 .
12. ابن عبد البر – الاستيعاب في معرفة الأصحاب ج1 ص362 .
13. محمد بن شاكر الكتبي – فوات الوفيات ج4 ص39 .
14. ابن العماد الحنبلي – شذرات الذهب في أخبار من ذهب ج6 ص27 .
15. محمد بن شاكر الكتبي – فوات الوفيات ج4 ص39 .
16. السيوطي – بغية الوعاة ج1 ص248 .
17. ابن منظور – لسان العرب ج ص .
18. المصدر نفسه .
19. ابن منظور – لسان العرب ج1 ص 121.
20. المصدر نفسه .
21. الفخر الرازي – التفسير الكبير – ج6 ص82 .
22. المصدر نفسه .
23. ابن منظور – لسان العرب – ج1 ص256.
24. المصدر نفسه .
25. ياقوت الحموي – معجم البلدان ج2 ص138.
26. ابن منظور – لسان العرب ج4 ص55.

27. الجوهري – الصحاح ج2 ص446.
28. ابن منظور – لسان العرب ج4 ص55.
29. المصدر نفسه .
30. المصدر نفسه .
31. المصدر نفسه .
32. المصدر نفسه .
33. ابن منظور – لسان العرب ج15 ص195 .
34. ابن منظور – لسان العرب ج15 ص 195.
35. ابن عبدربه – العقد الفريد ج1 ص164.
36. البغدادي – خزانة الأدب ج2 ص261 .
37. ابن منظور – لسان العرب ج1 ص197.
38. سيبويه – الكتاب ج1 ص26 .
39. ابن منظور – لسان العرب ج1 ص197 .
40. أبو نواس – الديوان ج1 ص587 .
41. سورة البقرة الآية رقم 187 .
42. ابن منظور – لسان العرب ج2 ص201 .
43. المصدر نفسه .
44. الجوهري – الصحاح ج1 ص234.
45. سورة ص الآية 32.
46. الطبري – جامع البيان ج23 ص155.
47. معلقة لبيد بن ربيعة – شرح التبريزي ص246.
48. ابن منظور – لسان العرب ج3 ص27 .
49. المصدر نفسه .